١٦- الجريمة

بعد أسبوع وفي منتصف مساء ليلة ظلماء، تقدم "سرحان الأعسر" بنفسه على عكس عادته في المزرعة، كان يرتدي جلبابًا وباروكة لتغير معالم وجهه، كي يمهد الطريق لعصابة من المجرمين للدخول، اقترب من البوابة، وألقى السلام على الحارس "عـادل"، وتحدث معه بود مصطنع كالثعالب، وعرّفه بنفسه على أنه مندوب شركة "الحمد" لتصنيع الجبن، ثم سأله عن كيفية شراء الألبان من المزرعة، فأخبره بأن يأتي في الصباح ليسأل صاحب المزرعة نفسه، لأنه هو المسئول عن البيع، فشكره، وأخرج لفافة طعام بها كباب ساخن تفوح منه رائحة شهية، وناولها للحارس، فأخذها ولعابه يسيل من الرائحة التي عششت في أنفه منذ أن قابله، وتوارى عنه "سرحان الأعسر" قليلاً حتى انقض على الطعام كوحش كاسر فأفناه في دقائق، وبعدها بدقائق أخرى فقد الحارس الوعي تمامًا، وتمدد على الأرض لا يشعر بأي شيئ؛ لأن الطعام كان محشوا بمادة مخدرة.

بعدها دخل خمس رجال ملثمون يحملون شنط بلاستكية سوداء، وقوية، وبها سم شديد المفعول، كانوا يرتدون على وجوههم أقنعة لا يظهر منها سوى العيون، وأخذوا يضعون أمام كل جاموسة في "المعلف" فوق الطعام ملء قبضة اليد من السم، وفي خلال دقائق معدودة كانوا قد انتهو من مهمتهم، وانصرفوا يركبون سيارة تنتظرهم بالخارج.

كان الجاموس بمجرد أن يلتهم بفمه بعضًا من الطعام، يسري السم في جسده بسرعة البرق، فيهيج يقفز من شدة الألم، كي يتفلت من الحبال السميكة المربوطة في أذنه فتقطع الأذن من قوة الشد، فيتضاعف الوجع، وبعضه

يسقط على الأرض فتكسر الأرجل، فُتسمع شهقات الموت حادة، وممزوجة بألم الاحتضار، كان الفناء مقترنًا بالعذاب.

أما"فاتن" فظلت بشرفتها تراقب ما يدور بالمزرعة، وتسمع خوار الجاموس الحاد جرّاء الألم، كان الصوت حادًا عالياً يشق السكون، بيد أنها كانت تبتسم في برود شديد، في حين أن السم يهوي كالسيوف يمزق بطون الحيوانات البريئة، ولم تدخل إلى غرفتها إلّا بعد أن أطبق الصمت المميت على المزرعة، تمددت تضحك كما الشيطان لا ضمير لها، حتى غاصت في نوم عميق، يتصاعد منه الشخير كأنه صفير من مزامير الموت.

ومع خيوط الفجر الأولي جاء العمال لمباشرة مهام أعمالهم في حلب مواشي المزرعة بالحلابات الآلية فوجدوا كل البهائم قد نفقت، والحارس يتمدد على الأرض فاقداً للوعي، وبجواره بعضًا من بقايا لفة الكباب، فقيدهم الحزن عن الحركة، فلم يعرفوا كيفية التصرف في مثل هذا الموقف.

استيقظ "غريب" في الصباح مبكرًا، وكان يشعر بانقباضة في قلبه، وقلقًا، وخوفًا لا يعلم مصدره، كأنه كان يقرأ الواقع، جر قدميه، ونهض نحو الحمام يغسل وجهه، وعاد يرتدي ملابسه حتى خرج، ليستقبل اللجنة الفنية التي ستقوم بإجراء معاينة فنية على المواشي لإعطائه القرض المطلوب في موعده، وعند اقترابه من المزرعة شاهد العمال يجلسون القرفصاء، ويضعون جماجمهم بين أيديهم، وكأن على رؤوسهم الطير، كان الحزن يملأ وجوههم، والصمت يطبق عليهم كما يُطبق الموت على الأحياء فيحولهم إلى صرعى بلا حراك، أدرك أن هناك أمرًا جللًا، وكما حدثته نفسه منذ بواكير الصباح، ولكن ما هو ذلك الأمر الذي يدفع هؤلاء لترك العمل والجلوس صفًا واحد أمام بوابة المزرعة كأنهم ينعون الحياة ؟.

أبطأ الخطى، وتثاقلت قدميه، حتى بات يجر نعليه بصعوبة أشد، وشعر بسرعة شديدة في ضربات قلبه، ونظر نحوهم متوجسًا، ألقى السلام على الجلوس مرتعدًا من صمتهم القاتل، فلم يرد أحد عليه خوفًا من أن يصدمه

الرد، كانت ألسنتهم معقودة بالصمت فلا يتكلمون، صرخ فيهم :

- ماذا حدث؟

وهرول نحو المزرعة يجري فإذا بكل المواشي ممدودة على الأرض، أفواههم عليها ريم، ورغاوي بيضاء، وقد ماتوا عن بكرة أبيهم، كان يبدو من منظر الجثث أن الحيوانات قد عانت أوجاع الاحتضار بحدة، كان المنظر رهيبًا، ومحزنًا، رأى "غريب" الطبيب البيطري بصحبة "سيف جاد" ، هرول نحوهما ليفهم ما حدث، بيد أنه من الواضح أنهما لم يستطيعا فعل شيئ، نظر إليهما صارخًا:

- غريب: ماذا حدث ؟!

- الطبيب: المواشي قد سُمت

- غريب: لماذا؟ أنا لم أفعل الشر قط، أنا أحمل الخير لكل الناس، لقد اخترت هذا المشروع بالذات حتى يستفيد أهلي وناسي هنا، وبني وطني في كل أنحاء القرية، كان من الممكن أن أذهب للمدينة واستثمر أموالي في العقارات فأربح الملايين في غمضة عين، قولي يا "سيف" هل أصبح الخير في هذا الزمن جريمة ؟ هل الصدق في هذه الأيام أصبح ذنبًا ؟ (يتقدم سيف نحوه يهدهد رأسه برفق، وهو يبكي)

- سيف : اهدأ يا غريب المهم إنك سليم، وسوف تعوض المال الذي ضاع منك

- غريب:(منهارًا باكيًا) أنا لا يعنيني المال، يا "سيف"، كل ما يؤلمني هو الغدر دون ذنب، من فعل بهذه الأرواح البريئة تلك الفعلة الشنيعة، من الذي قتلها بهذه الطريقة الشرسة، كم تألمت هذه الحيوانات الخرساء من أوجاع السم؟! يا حزني عليكي أيتها البهائم، في هذه الدنيا المتقلبة، لم يسلم الأبرياء من البشر، حتى الحيوانات لم تسلم من شر الخائنين.

سقط مغشيًا عليه من شدة الصدمة، فهرولوا نحوه، وحاولوا إفاقته،

فوجدوه يهذي بكلام غير مفهوم، وتنتابه حالات تشنج خطيرة، خشوا عليه من الصدمة ونقلوه بسرعة إلى مستشفى القرية كي تسعفه.

نام "غريب" على السرير بغرفة الاستقبال فاقدًا للوعي، كان عقله يتذكر كيف كانت تعامل الحيوانات في "هولندا" مرت على ذهنه واقعة سقوط كلب صاحب المزرعة التي كان يعمل بها في بئر عميقة يقترب عمقها من عشرة أمتار، وكاد الكلب أن يموت من الجوع والبرد، وخاصة أن الثلوج كانت تغطي القاع بكثافة، فما كان منه إلّا أن سعى لإنقاذه من الموت، بأن أحضر حبلًا طويل ربطه في عمود حديدي بجوار البئر، وهبط عليه، وأمسك حبلًا آخر مربوطًا بجوال من الخيش لحمل الكلب فيه حتى لا تؤذيه حافة الحبل عند جذبه إلى أعلى، وبعد أن وضع "غريب" وقتها الكلب بالجوال تسلق فوق الحبل المخصص للصعود، وبعدها جذب الكلب حتى أخرجه.

تحول الحدث إلى مادة ثرية بكافة وسائل الإعلام، وكرمته بعض الجمعيات التي أُنشئت هناك خصيصًا للرفق بالحيوان، وقابله عمدة المدينة، ومنحه شهادة تقدير لنبله وشجاعته؛ لأنه أنقذ روحًا من الموت، ورغم أنه يرقد في غيبوبة، كان عقله الباطن يتذكر الفرق بين البشر هنا وهناك، كان يتألم حزناً على أرواح أُزهقت بلا جريرة.

حضرت أمه "حميدة" تصحبها "رجاء" يبكيان على حاله، ومن هول الفعلة الشنيعة، ظلا بجواره سويعات حتى فاق من غيبوبته، وعاد معهم وخلفه أهل القرية يواسونه، ويلعنون المجرم المجهول الذي فجعهم بفعلته الخسيسة، وقد جاءت الشرطة، واستجوبت الحارس بعد أن تم إسعافه، ولم تصل التحقيقات إلى تحديد هوية المجرم الذي ارتكب هذا الحادث، فحرر المحضر كما هي العادة ضد مجهول، ولم يتم اكتشاف الجاني.

كان "سيف جاد" يبكي متأثرًا، ويقسم بالثأر من الفاعل، متوعدًا إياه بالانتقام، ولذا اختفي عن القرية عدة أيام يبحث عن الحقيقة، لعله يعود بالخبر اليقين، وموثقًا بالدليل.